تقسيم المقاصد بحسب المصالح

تبين مما سبق أن مقاصد الشريعة هي تحقيق مصالح الناس ، ولكن المصالح ليست على درجة واحدة من حيث الأهمية والخطورة وحاجة الناس إليها ، وإنما هي على مستويات مختلفة ، ودرجات متعددة ، فبعض المصالح ضروري وجوهري يتعلق بوجود الإنسان ومقومات حياته ، وبعضها يأتي في الدرجة الثانية ، ليكون وسيلة مكملة للمصالح الضرورية السابقة ، وتساعد الإنسان على الاستفادة الحسنة من جوانب الحياة المختلفة في السلوك والمعاملات وتنظيم العلاقات ، وبعض المصالح لا تتوقف عليها الحياة ، ولا ترتبط بحاجيات الإنسان ، وإنما تتطلبها مكارم الأخلاق والذوق الصحيح ، والعقل السليم ، لتأمين الرفاهية للناس ، وتحقيق الكماليات لهم[١] .

ومن هنا حصر العلماء مصالح الناس ، وقسموها بحسب أهميتها وخطورتها وأثرها في الحياة وحاجة الناس إليها ، إلى ثلاثة أقسام ، وأن مقاصد الشريعة جاءت لتحقيق هذه المصالح بأقسامها الثلاثة ، وهي :

١ـ المصالح الضرورية :

وهي التي تقوم عليها حياة الناس الدينية والدنيوية ، ويتوقف عليها وجودهم في الدنيا ونجاتهم في الآخرة ، وإذا فقدت هذه المصالح

---

(١) انظر : قواعد الأحكام ، للعز بن عبد السلام ١/ ٢٩ وما بعدها ، ٤٢ وما بعدها ، ص٧١ وما بعدها ، حقوق الإنسان في الإسلام ، للدكتور محمد الزحيلي ص٨٠ .

الضرورية اختل نظام الحياة ، وفسدت مصالح الناس ، وعمَّت فيهم الفوضى ، وتعرض وجودهم للخطر والدمار والضياع والانهيار وضاع النعيم في الآخرة ، وحلَّ العقاب .

وهذه المصالح الضرورية هي الأساس لحقوق الإنسان ، وهي السند لها ، والركيزة التي تعتمد عليها ، والكوكب الذي تشع منه ، سواء كانت حقوقاً عامة تنادي بها جميع الأمم والشعوب والدساتير والمواثيق العالمية ، والقوانين والاتفاقات الدولية ، وتسمى الحقوق الأساسية للإنسان ، ومنها حق الحياة ، وحق التدين ، وحق الحرية ، وحق المساواة ، أم كانت حقوقاً فرعية وخاصة ، وكلا النوعين واجبات على الآخرين يجب عليهم الالتزام بها ، وحفظها لأصحابها ، لأن كل حق يقابله واجب ، والحق : هو مصلحة مقررة شرعاً أو قانوناً : فالحق منفعة تثبت لإنسان على آخر ، فالحق مصلحة قررها الشرع أو القانون ، لينتفع بها صاحبها ، ويتمتع بمزاياها ، وبالتالي تكون واجباً والتزاماً على آخر يؤديه ، لتحقيق الغاية منها[١] .

حصر المصالح الضرورية :

وتنحصر المصالح الضرورية للناس في نظر الإسلام في خمسة أشياء ، وهي الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسل أو العرض أو النسب ، والمال .

وجاءت الشريعة الغراء لحفظ هذه المصالح الضرورية ، وذلك بتشريع الأحكام التي تحفظ الدين ، وتحفظ النفس ، وتحفظ العقل ، وتحفظ النسل أو العرض أو النسب ، وتحفظ المال[٢] .

---

(١) حقوق الإنسان في الإسلام ، الدكتور محمد الزحيلي ص٩ ، ١٤٠ .

(٢) المستصفى ١/٢٨٦ ، الموافقات للشاطبي ٢/٤ ، علم أصول الفقه ، الشيخ =

واتفقت الشرائع السماوية على مراعاة هذه الحقوق الأساسية والمصالح الضرورية للناس ، فنادت بها ، وحرصت عليها ، وعملت على حمايتها وحفظها .

قال حجة الإسلام الغزالي رحمه الله تعالىٰ : « ومقصود الشرع من الخلق خمسة ، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ، ونفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ، ودفعها مصلحة » ثم قال : « وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع في رتبة الضرورات ، فهي أقوى المراتب في المصالح »[١] .

ثم قال الغزالي : « وتحريم تفويت هذه الأمور الخمسة ، والزجر عنها يستحيل ألا تشتمل عليه ملّة من الملل ، وشريعة من الشرائع التي أريد بها إصلاح الخلق ، ولذا لم تختلف الشرائع في تحريم الكفر ، والقتل ، والزنى ، والسرقة ، وشرب المسكر »[٢] .

٢ـ المصالح الحاجية :

وهي الأمور التي يحتاجها الناس لتأمين شؤون الحياة بيسر وسهولة ، وتدفع عنهم المشقة ، وتخفف عنهم التكاليف ، وتساعدهم على تحمل أعباء الحياة ، وإذا فقدت هذه الأمور لا يختل نظام الحياة ، ولا يتهدد وجود الناس ، ولا ينتابهم الخطر والدمار والفوضى ، ولكن يلحقهم

= عبد الوهاب خلاف ص١٩٩ ط٨ ، الأصول العامة لوحدة الدين الحق ، الزحيلي ص٦٠ـ٦١ .

(١) المستصفى ، له ١/ ٢٨٧ .

(٢) المستصفى ١/ ٢٨٨ ، وانظر : فلسفة العقوبة ، للشيخ محمد أبو زهرة ص٤٢ ، الأصول العامة لوحدة الدين الحق ص٥ .

الحرج والضيق والمشقة ، ولذلك تأتي الأحكام التي تحقق هذه المصالح الحاجية للناس ، لترفع عنهم العسر ، وتيسر لهم سبل التعامل ، وتساعدهم على صيانة مصالحهم الضرورية وتأديتها ، والحفاظ عليها عن طريق الأحكام الحاجية ، كالرخص في العبادات ، وأحكام المعاملات[١] ، كما سيأتي بيانها .

٣ـ المصالح التحسينية :

وهي الأمور التي تتطلبها المروءة والآداب والذوق العام ، ويحتاج إليها الناس لتسيير شؤون الحياة على أحسن وجه ، وأكمل أسلوب ، وأقوم منهج ، وإذا فقدت هذه الأمور فلا تختل شؤون الحياة ، ولا ينتاب الناسَ الحرجُ والمشقة ، ولكن يحسون بالضجر والخجل ، وتتقزز نفوسهم ، وتستنكر عقولهم ، وتأنف فطرتهم من فقدها .

وهذه الأمور التحسينية ترجع إلى ما تقتضيه الأخلاق الفاضلة ، والأذواق الرفيعة ، وتكمل المصالح الضرورية ، والمصالح الحاجية على أرفع مستوى وأحسن حال[٢] .

* * *

(١) المستصفى ١/ ٢٨٩ .

(٢) الموافقات ٢/ ٦ ، علم أصول الفقه ، خلاف ص٢٠٠ ، المستصفى ١/ ٢٩٠ .